

## حلم استعادة الفردوس المفقود

### أم هاجس الخروج من المجتمع الآسن؟ (\*)

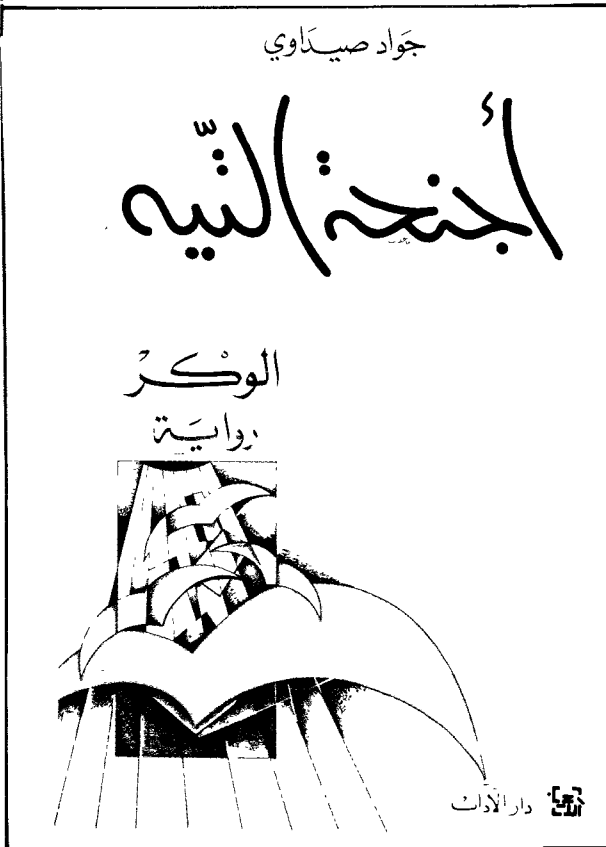
د. علي سعد

طبيعة المادة الخام التي تشكّل مضمون العمل الروائي، أو العمل الفني بشكل عام (الإطار الزمني والمكاني للوقائع، وهوية - ونوعية - سلوك الأشخاص الذين يحرك المؤلف مصائرهم والعلاقات التي تربطهم ببعضهم وبالمجتمع والعالم)، بل تتصل بطريقة عرض هذه المادة المبدولة بسخاء في الواقع الخارجي وبكيفية تشكيل مختلف عناصرها والزوايا التي يختارها المؤلف لرؤية الشئ الذي يتكوّن منه

الغميق والحي اللاتيني وأصابعنا التي تحترق لسهيل ادريس. ولا يخفى ما كان للبعض فيها من تأثير كبير في استحداث أو تعميق تيارات ومدارس في منعطفات تاريخ الأدب والفن. ولا شك في أنّ السيرة الذاتية الموضوعية في شكل روائي لا تقل قيمتها الإبداعية عن الرواية، بأي وجه، ولا هي أدنى منها قدرة على تحريك مخيلة القراء وأحاسيسهم. إنّ العملية الإبداعية لا تنحصر في

عند القراءة الكاملة للأثر الأخير الذي أصدره جواد صيداوي تحت عنوان أجنحة التيه متبوعاً بإشارة «رواية»، يتضح بما لا يقبل الشك أنّ ما بين أيدينا هو عبارة عن سيرة ذاتية موضوعية في قالب روائي Autobiographie romancée تروي الأحداث التي مرّت في حياة المؤلف وما تركت في نفسه من انطباعات وأثارت من رؤى ورغبات وطموحات في الفترة الممتدة بين العاشرة والسابعة عشرة من عمره.

وأنا أعلم أنّ التمييز بين الرواية والسيرة الذاتية الموضوعية بالشكل الروائي لا يرتدي غير أهمية شكلية. ويكفي أن أذكر أنّ ما لا يحصى من الآثار الأدبية التي تُدرج عادةً في خانة الأعمال الروائية كانت محاولات ساطعة لتقديم صورة عن واحدة أو أكثر من مراحل حياة مؤلفها: من فرثر لچوته ورينه لشاتوبريان وغرازيلا ورافائيل نلامارتين وأوريليا وسيلفي لجيرار دونرفال إلى أزيادة لبيير لوتي وطفولتي لمكسيم جوركي والباب الضيق لأندرية جيد؛ وفي العربية من الأجنحة المتكسرة لجيران والأيام لظه حسين وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، إلى الخندق



(\*) جواد صيداوي، أجنحة التيه (بيروت: دار الآداب، 1993).

الواقع الدّاخلي' والواقع الخارجى . وهذه الرّؤية تصحّ على خلق السيرة الدّاتية بقدر ما تصحّ على خلق الرّواية .

وأعترف بأنني آثرت الإشارة إلى اندراج أجنحة النّيه في باب السيرة الدّاتية لأذكر بالظاهرة الّافئة المتمثلة، في أيامنا هذه، بتزايد صدور السير الدّاتية في شتى مجالات النشاط الإنسانى وخاصة النشاط الثقافى . ويبدو أنّ لوسائل الإعلام دوراً كبيراً في تحريك الرّغبة عند الناس للالتفات إلى الماضى ولاستحضار الذّكريات الحلوة والمرّة واللحظات المميزة في مسارات حياتهم .

فما هو سرّ هذه التّزعة؟

هل هو مجرد افتتان بالماضى؟ هل هو وهم ضخّ نسغ الطّفولة وماء ينبوع التّجدد في كيانات المنهك بمجرّد التحوّل بذاكرتنا إلى بدايات تكوّن وعينا وأحاسيسنا؟ أم هل ترانا نحسّ أنّنا بعودتنا أدراج الزّمان ننجح في مغالته ووقف مفاعيل مروره على أجسادنا وأرواحنا؟

يقول الشّاعر شوقى بزيع «إنّ آدم حين هبط من الجنّة كان يعلم أنّه يخسر فردوسّ الواقع ليربح فردوسّ الذّكرة، وأنّ أجمل ثمار الجنّة لم تكن التّفاحة بل الحنين؛ إنّ الجنّة الحقيقيّة هي جنّة الوسواس والرّوى والأخيلة الّتي تتأرجح بين الفقدان والوعد . بين هذين الحدّين تقع الكتابة ويفتح شقاء العقل على نعيم يظلّ دائماً قيد الإنجاز على حدّ قول أبى الطّيب المتنبى» .

يا ترى، هل هذه الرّؤية الشّعريّة هي الّتي قادت صديقنا جواد صيداوى عندما

اختار لكتابة عمله الرّوائى الثّانى أجنحة النّيه (الّذى سنسميه رواية فيما يلى من مداخلتنا) أن يستحثّ ذاكرته ليروي لنا أحداث أيامه المنقضية بين حدّي الطّفولة والصّبّ الأوّل؟ هل محاولته استحضار ما ضيه هي حقّاً محاولة لاستعادة فردوس مفقود ووسيلة لمعالجة بشاعة الحاضر بالصّور البهيّة الّتي تتلوّن بها أيّام الطّفولة الرّاقدة في قيعان الذّكرة؟

\* \* \*

باستثناء بعض المقاطع الّتي يعبر فيها أديبنا، بلغة زاخرة بالشفافية والنّبض الوجدانى الشّجى، عن مواقف ومشاهد وصور مشحونة بالبهاء والقدسية (من مثل ليلة حبّ في ضوء القمر، أو وقفة أمّ في خشوع الصّلاة والدّعاء لتقريب عودة ابنها، أو ترجيعات أصوات المسحراتى في هدأة الهزيع الثّانى من اللّيل) فإنّ جواد صيداوى يبدو مسكوناً بهواجس أقلّ بهجة، وأبعد من التّعبير عن مشاعر الحنين إلى ماضٍ نراه أبعد ما يكون عن محاولة تجميله . ففي غالبيّة فصول هذه الرّواية، كما في روايته الأولى العودّة على متن الرّحيل، نجده أقرب إلى أن يتعمّد إبراز الوجوه القائمة والبائسة في حياة أهالى القرى الّتي اختارها مسرحاً لأحداثهما .

فأحمد شمران المغترب الغنى ابن القرية الجنوبيّة جرنابا، العائد بالطّائرة إليها من مغتربه في البرازيل، تنضح ذكرياته عنها بالمرارة والألم لكثرة ما عرفه فيها من مشاهد البؤس والفقر والجهل وقسوة الطّباع . وهو يكشف عن مرارته هذه بقوله سائلاً نفسه ومعاتباً لها لإقدامها على محاولة العودّة إلى العالم القديم البائس :

لماذا تلبّسّته الرّغبة الغبية بالعودّة وهو في إبان النّجاح وغمرة السعادة وبهجة الحياة؟ لقد جعلت منه هذه الرّحلة إلى الماضى مضغةً بين أنياب ذكريات بائسة تعود أحداثها إلى زمن بدائى بأناسه ومعتقداته وتفاهاته المقدّسة . ما الغاية من عودة المرء إلى جذوره إذا كانت هذه الجذور ضاربة في مستنقع آسن؟ من الذى يعود من نعيم الوجود إلى جحيمه، مختاراً، سوى الأحسق أو المجنون؟ (العودّة على متن الرّحيل) ص ١٧٦ .

وفي رواية أجنحة النّيه نرى الحرصّ نفسه على إظهار غلبة الجوانب المّعتمّة في مجتمع «النّطيّة» والتشوّهات في سلوك أهلها وأحداثها . وفي رأس هذه الجوانب المعتمّة الّتي يلحظها الرّاوى الجهل، والفقر، وما جذّرته التّقاليد والعداوات المتحدّرة من عهود التخلّف من مظاهر تسلّط الرّجل وقمع المرأة واضطهاد كلّ تفتّح عاطفى وما يستتبعه من كبت جنسى ومأس عائليّة؛ وغلبة التّفسير الخرافى لظواهر الطّبيعة والحياة الإنسانية بفعل تسلّط رجال الدّين وتحالفهم مع الإقطاع السّياسى في محاولة لجم حركة التوسّع بالتّعليم وبالتالي عرقلة تحرّر العقل الإنسانى وتقدّم المجتمع .

وكان طبيعياً أن ترتفع في ذهن الفتى اليافع «نديم الصّافى» الّذى يسجّل آثار هذا التخلّف في مصائر أهل بلده النّطيّة أصداءً هذه الأمنية :

ما أحوجنى، في هذه الدّوامّة، إلى صديق أو قريب يأخذ بيد عقلى ويدّ قلبى . فينقذنى من هذا النّيه فى صحراء الوجود . . . طويت جناحيّ

القصيرين على حيرتي في الوقت  
الذي بدأت فيه رغبة غامضة  
تنامي في أعماقي وتغريني  
بالخروج من دائرة العائلة  
والجيران وأحلام البقطة.

رواية أجنحة التيه، بتأكيدها على هذه  
المشاهد السلبية لواقع البيئة التي يتحرك  
فيها أشخاصها، تبدو على غرار سابقتها  
العودة على متن الرّحيل مدفوعة بهم  
تغيير واضح. وإذا كان الواقع  
المأساوي الذي تصفه رواية العودة على  
متن الرّحيل لم يتحرر منه بطل الرواية،  
أحمد شمران، إلا بالهرب إلى دنيا  
الاغتراب حيث عرف طريق الثروة  
والسعادة، فإن رواية أجنحة التيه تبدو  
وكأنها تشير إلى الطريق الصحيح  
والناجح للخروج من هذا الواقع.

فإلى جانب المحور المتمثل بهم  
تصوير الواقع وإبراز ما فيه من وجوه  
سلبية، نجد في هذه الرواية محوراً لا  
يقل أهمية، عنيت: انشداد بطل الرواية  
إلى عملية اكتساب العلم والمعرفة في  
مراحلتي دراسته الابتدائية والتكميلية.  
وفي ذلك نلمح إشارة ضمنية إلى  
الطريق التي يؤمل منها تحرير المجتمع  
من الواقع المرير.

ونلاحظ أن المؤلف ليس واثقاً من أن  
العلم وحده هو السلاح الناجح  
والجماعي لتحرير المجتمع من شتى  
عبودياته. لذلك نراه يلجأ إلى رافد آخر  
يساند المعرفة العلمية. ذلك هو تلمس  
الوعي الإيديولوجي الذي من شأنه أن  
يبعث الصلابة في سلاح المعرفة العلمية  
وأن يوجهها، بفضل العمل الجماعي في  
اتجاه بث الوعي في الجماهير وخدمة  
المجتمع بوجه عام. ولعل في هذه  
الرؤية الرمزية ما يفسر تحويم الراوي

اليافع «نديم» حول مسألة دخول الحزب  
الشيوعي مكتفياً، بناءً على نصيحة أحد  
جيرانه المجرّبين، بإرجاء عملية انتسابه  
إلى ما بعد خروجه إلى عالم المدينة  
لاستكمال دراسته الثانوية بعيداً عن  
ضغوط والده التاجر الأثري وخاله  
الموغل في التفكير اليميني.

وبالمناسبة، يجدر بنا أن نحیی  
شجاعة جواد صيداوي بإقدامه، في  
أيامنا هذه التي تشهد ارتداداً شاملاً عن  
التجربة الشيوعية، على التحدث عن  
الهواجس والهتافات الداخلية التي كانت  
تدفع بالبطل الذي يروي الأحداث  
بلسانه لربط مصيره بمصير حزب كان  
محاطاً بمواقف عدائية خطيرة، ولاسيما  
بسبب تهمة الإلحاد التي كانت تلصق به  
وبسبب موقفه [الإيجابي] من قضية  
تقسيم فلسطين. ولعلني أراني مُلزمًا  
بتوجيه تحية إلى جواد صيداوي لتمكّنه  
من أن يتخلص في روايته الجديدة  
أجنحة التيه من المناخ الغرائبي  
والكابوسي والميتافريقي الذي شحنه  
في الفصل الثاني من روايته الأولى  
العودة على متن الرّحيل فجعل منها رواية  
ذات نمطين متعارضين في عملية السرد:  
النمط الواقعي والنمط المثالي الغيبي.

أما رواية أجنحة التيه فقد جاءت أكثر  
اتساقاً وتوحداً في نمط السرد والرؤية  
والمناخ. وهي إذ تعود بنا إلى خط  
الواقعية النقدية الأصلية الذي افتقدناه  
في غمرة الغزوة الشرسة لما يسمّى تيار  
الرواية الجديدة، فإنها تشكل بادرة شجاعة  
أخرى لهذا الكاتب الذي يرفض القيام  
بالتنازلات أمام أزياء الأدب السائد.

وهو في عمله الروائي الأخير يقدم لنا

واقعاً مرسوماً بصورة تركيبية، تتداخل  
في بنيتها وقائع ومشاهد تتوزع على  
محورين طوليين ومدار خلفي يتألف من  
خطوط متشعبة ذاهبة في اتجاهات  
شتى:

- محور طولي أوّل ينقل إلينا تجربة  
الصبي الراوي وبعض أترابه ومجاليه  
في تدريجهم على طريق تحصيلهم  
الدراسي وتكونهم العاطفي والعقائدي  
في حى تلمسهم طريق العقيدة  
الماركسيّة أو انخراطهم الفعلي في  
النضال تحت رايتها.

- ومحور طولي ثانٍ موازٍ للأوّل  
تتوالى فيه الأحداث السياسية الكبرى:  
دخول الجيوش البريطانية والديغولية لطرده  
جيش فيشي عام ٤١، الحرب العالمية  
الثانية، قرار التقسيم، والصراع العربي  
الفلسطيني. ويبدو أن هذه الأحداث  
أوردها المؤلف من جهة بوصفها  
محطات لرصد إيقاع مسيرة الزمن في  
حياة الناس، ومن جهة أخرى وسيلة  
لاستقطاب مواقف وحوارات بين  
مختلف الأشخاص المتعاقبين على  
مسرح الرواية تدل على الصراع بين  
التوجهات العقائدية الواعية أو اللاواعية  
التي تميّز بينهم.

- ومدار يقوم في خلفيّة المحورين  
ويرتبط بهما بخطوط فرعية متشعبة؛  
ويندرج في نسيجها ما يسرده الراوي من  
قصص وحكايات ومأس، ويرسم مشاهد  
من حياة بلدة «النبطية» وجوارها في  
أربعينيات هذا القرن. ومن مجموع هذه  
القصص والمشاهد المرسومة أحياناً  
بكلمات بالغة الصراحة والقسوة في  
تعرية الواقع والكشف عن مواطن الخلل

في بنية المجتمع وأحياناً بلغة مشعشة بالحنان والرفقة أمام الظواهر الصحيّة التي تقوم في نسيج هذا المجتمع، تتشكّل لوحةً بانورامية غنيّة التلاوين نابضة بالصدق والحياة.

هذا الجانب من رواية أجنحة التيه الذي يأتي امتداداً لمضمون رواية العودة على متن الرّحيل يقدّم لنا عيّنة نموذجيّة ممّا سمّاه النقاد المسح الاجتماعي المتكامل «للبيئة القرويّة التي تصوّرها الروايتان».

وعملية المسح هذه التي حقّقها المؤلف في روايته هي التي يضفي على كتابته فيها اللون النقيّ المتلازم مع خطّ الواقعيّة الذي اختاره.

وإذا كان هذا التوجّه بما يشتمل عليه من استعانة بإبراز التفاصيل الدقيقة في وصف جملة من الحالات والوقائع والأوضاع، وفي توصيف التكوين

الخُلقي والخُلقي لأشخاص الرواية يؤدّي، في بعض المواضع، إلى بثّ الثقل في مسيرتها السردية التي لا تخلو من رشاقة في إيقاعها العام، ويوحى بشيء من التّقريريّة أو بالتّعالّم غير المستساغ دائماً عند بعض قرّاء الأثار الأدبيّة... فإنّه بالمقابل يعطي نصّ الرواية وهج الصّدقيّة وكثافة حضور الواقع؛ وتلكما خاصّتان تميّزان عادة أعمال الروائيين الواقعيين الكبار.

وننتهز المناسبة لنشير إلى أنّ البعض قد يرى في استرسال الرواي - وهو بعدُ في سنّ المراهقة في طرح أفكار أو تساؤلات، سواء في حواراته أو في ترجيعات أعماق نفسه، تعلق بمضمونها وصياغتها عن مستوى لغة (وفكر) من هم في عمره - تجاوزاً لمفهوم الواقعيّة، ومحاولة من المؤلف لإسقاط مفاهيمه ولغته، وهو في أوج نضجه الفكري

والعاطفي، على بطل روايته الذي لا يزال في مطلّ وعيه.

وإنّني أرى في هذا التّماهي بين المؤلف والرواي اليافع، وتوحدتهما في مستوى الخطاب، على بُعد الشقّة بين عمريهما وتجربتهما، انسياق المؤلف مع فتنة الصياغة التي يفقد فيها الزمّن التقليدي تعاقبه وتسلسله الآليّ لكي يحتفظ بسمتين متكاملتين: أولاهما تلك الآنيّة المتجدّدة بكلّ خصائص اللحظة الهاربة وقد أوقفت في مسارها كما لو أنّ سيولتها قد تجمّدت وعرضيّتها قد خُلدت؛ وثانيتهما محاولة اقتناص ما لا يمكن أن يُقتنص في تدفقه الدائم وإسباغ الثبات على ما هو في جوهره متحرّك وعابر، في الوقت نفسه الذي يصبح فيه الزمّن خارج الزمّنيّة كلّها، بحيث يتداخل الماضي والحاضر والمستقبل وتضيع الحدود بينها بفضل المتعة التي يغدقها سحر الكتابة.

بيروت

## متاهة جيل وتضاريس مدينة (\*)

### د. صبري حافظ

تلك العملية إلى نصّ أدبي، فما هي الآليات الفاعلة في طريقة كتابة تلك الاستعدادات وطريقة توزيع الأدوار فيها بين الشّخصيات؟ وما هي علاقات التناصّ بين النصّ الروائي المكتوب، وبين النصوص الأدبيّة المذكورة في ساحته، أو حتّى المضمرة في إحالاته التناصيّة المختلفة؟ وكيف يتخلّق الجدل بين الاستدعاءات الحاضرة في النصّ، وتلك الغائبة من ساحته؟ وكيف تدور لعبة الإضمار والمكاشفة، لأنّ فكّ شفرات هذه اللعبة والتعرّف على قواعدها هو الذي يفضي إلى

ونصف إرادة؟ هل باستطاعة الكتابة استعادة ألق اللحظة التي انطوت ولفّها انسيال الزمّن في سعيه الذي لا يتوقّف؟ وما هي العلاقة بين الصّورة التي تتخلّق أثناء عملية الاستعادة وبين تلك التي عشناها بالفعل؟ وبصورة أخرى، ما هي العلاقة بين النصّ - المكتوب منه والمعيش - وبين الواقع العياني الذي يتعامل معه استدعاءً وتحليلاً ومداورة؟ وهل يمكن أن تصبح عملية الاستعادة في حدّ ذاتها تجربة عيانيّة من تجارب طقوس التّطهر، والتعرّف على حقيقة الذات وفرز نزاعاتها؟ وإذا ما تحوّلت

تطرح رواية الكاتبة التّونسيّة الجديدة علياء التّابعي زهرة الصّبار مجموعةً من أهمّ القضايا الأدبيّة التي شغلت النصوصّ الروائيّة منذ أن كتب بروس رويته الكبيرة البحث عن الزمّن الضائع، وهي تلك القضية التي يمكن صياغتها في الأسئلة التالية: هل يمكن حقّاً استعادة الأزمنة المنصرمة؟ وهل يمكننا تذاكر الماضي، والتّقيب في طواياه عن فهم لأنفسنا بشكل أفضل، وإدراك حقيقة الواقع الذي عشناه بنصف وعي

(\*) علياء التّابعي، زهرة الصّبار، تونس.